



أعجبني في اليمين التي حلف عليها أنس بن النضر -رضي الله عنه-. أن الرجل كان يشهد الله وحده، ويتشهد أولاً وأخراً رضاه.

لقد أحزنه أن الله لم يره في ميدان القتال ببدر، فأقسم أن يري الله نفسه في أول لقاء بالكافرين، وأن يضرب أعلى مثل في التفاني والاستبسال...

وذلك في ذات الإله وإن يشاً *** يبارك على أوصال شلوٍ ممزع
لم يدر بخلد أنس تطلع إلى جاه أو تشوق إلى شهرة.
كان الرجل أذكي نية، وأشرف نفساً من أن يلمع بهذه الدنيا.

والعمل لا يوصف بالصلاح، ولا يرشح للقبول، إلا إذا أخلص لله وحده، وقصد به وجهه. روى أحمد بن حنبل عن محمود بن لبيد: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن أخاف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: و ما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء! يقول الله - عز وجل - للمرائين - إذا جزى الناس بأعمالهم -: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا: هل تجدون عندهم جزاء؟)).

والواقع أنه لا جزاء عندهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، فماذا يرجو عبد من عبد إلا أن يزداد ذلاً؟ وماذا يطلب فقير من فقير إلا أن يزداد عيلة!!!

إن الإخلاص لله سياج العز وضابط الخير فيحياتين.

وعندما تصدق النية فلا يخشى على العبد من مجاهرة بصلة أو جهاد أو صدقة، إذ الأساس استهداف وجه الله - تعالى -، وليس على البال غيره.

ومن الحماقة أن يطلب الإنسان ثناء الخلق وهو يعلم أن الله قد ستر عليه ذنوبها لو كشفوها لسودوا وجهه!!
الله - تعالى - أولى بالاتجاه والمودة وأحق بالحفاوة والالتفات.

ومن عظمة الإيمان اكتفاء المرء ينظر الله إليه، وإيثاره أن يعمل في صمت أو يموت جندياً مجاهلاً، وهذا الاكتفاء دلالة

استغراق المرء في الشهود الإلهي، ورسوخ قدميه في مقام الإحسان، وتلك هي الولاية كما شرحها معاذ بن جبل - رضوان الله عليه -. روى ابن ماجه: أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خرج إلى المسجد فوجد معاذاً عند قبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبكي! فقال: "ما يبكيك؟" قال: "حديث سمعته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ((اليسير من الرياء شرك، ومن عادي أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غباء مظلمة))."

أجل إن الله - تعالى - يحب أولئك العاملين في صمت، الزاهدين في الشهرة والسلطة، المشغولين بالباب عن القشور، المتعلقة قلوبهم بالله، لا تحجبهم عنه فتنـة، ولا تغريهم متعة وما أفتر أمتنا إلى هذا الصنف المبارك، بهم ترزق وبهم تنصر.

إلا أن بعض العبادات الأصلية ما تتم إلا في جو العلانية والظهور كالتعليم والدعوة والقضاء والجهاد، بل إن قيام الأركان الأساسية يتطلب ذلك، وهنا تؤكـد خطورة النية المصاحبة في تقويم أي عمل صحة وقبولاً...

وقد كان أبو بكر - رضي الله عنه - يقوم الليل فيقرأ سراً، وكان عمر - رضي الله عنه - يقوم فيقرأ جهراً.

فلما سُئل الصديق قال: أسمعت من أناجي! ولما سُئل الفاروق: قال: أوقظ الوستان وأطرد الشيطان!

إن إخلاص النية هنا وهناك يجعل السر والعلن سواء.

وذلك ما ينبغي أن يعيه الدعاة والقضاة والساسة والقادة، وكل من يحملون مؤنة الآخرين، أو يكونون في موضع الأسوة... والإخلاص لا يمنع المسلم من الاهتمام بنفسه وكرامته.

إن الله كلفنا أن نجمـل أبداننا وملابسنا، وكـره لنا رثـاثة الهيئة وكـابة المنظر في الأهل والمـال، فليس من الرياء أن نصون أحوالنا، ونحسن مكاناتنا من الظـنـون والمـكـدرـات!

من حقـ الكـريمـ أـلاـ يـتـهمـ بـالـبـخلـ كـمـاـ أـنـ مـنـ حـقـ النـظـيفـ أـلـاـ يـرـمـىـ بـالـأـدـرـانـ.

لـكنـ الدـفـاعـ عـنـ الـكـيـانـ الـمـادـيـ وـالـمـعـنـويـ شـيءـ وـطـلـبـ وـجـوهـ النـاسـ بـالـعـمـلـ الصـالـحـ شـيءـ آـخـرـ.

وـقـدـ خـلـدـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ ذـكـرـ فـرـيقـيـنـ مـنـ الـهـدـاـةـ الـأـتـقـيـاءـ،ـ أـحـدـهـمـ سـجـلـ أـسـمـاءـ وـجـهـادـهـ وـأـثـنـيـ عـلـىـ رـجـالـهـ أـطـيـبـ الثـنـاءـ،ـ وـالـآـخـرـ

طـوـيـ أـسـمـاءـ وـنـشـرـ سـيـرـتـهـ وـاـكـتـفـيـ بـشـرـحـ عـمـلـهـ وـتـزـكـيـةـ أـمـرـهـ.

من الأولين أنبياء الله الكرام الذين غرسوا هدايات السماء في الأرض، وذادوا عنها أوبـةـ الكـفـرـ وـالـعـدـوـانـ.

وـالـقـرـآنـ الـكـرـيمـ عـنـدـهـ يـثـبـتـ تـارـيـخـاـ لـاـ يـعـنـىـ إـلـاـ بـإـبـرـازـ الـمـنـاقـبـ الـتـيـ تـؤـخـذـ مـنـهـ الـأـسـوـةـ،ـ وـالـفـضـائـلـ الـتـيـ سـبـقـتـ بـذـوـيـهـ وـأـعـلـتـ

أـقـدـارـهـاـ..ـ !

تدبر قوله - تعالى - : {وَإِذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَ الدَّارِ *

وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَفِينَ الْأَخْيَارِ} [ص: 45-47].

إـنـ هـذـهـ الـآـيـاتـ تـنبـهـ إـلـىـ الـاسـطـالـةـ الـمـادـيـ وـالـمـعـنـويـ لـهـؤـلـاءـ الـدـعـاـةـ الـكـبـارـ،ـ فـلـيـسـ الـأـيـديـ وـالـأـبـصـارـ هـذـهـ الـأـعـضـاءـ وـالـحـوـاسـ

الـتـيـ يـشـتـرـكـ فـيـهـ الـعـبـاقـرـةـ وـالـدـهـمـاءـ،ـ وـلـكـنـهـ الـقـدـرـةـ وـالـعـرـفـةـ.

وـهـلـ يـتـقـدـمـ وـيـتـأـخـرـ،ـ إـلـاـ بـهـذـاـ التـفـاوـتـ الـبـعـيدـ فـيـ الـهـمـ وـالـثـقـافـاتـ؟ـ؟ـ

وـنـدـعـ الـحـدـيـثـ عـنـ هـذـاـ الـفـرـيقـ الـذـيـ رـفـعـ اللـهـ ذـكـرـهـ إـلـىـ الـفـرـيقـ الـآـخـرـ الـذـيـ أـسـدـلـ عـلـىـ أـسـمـاءـ رـجـالـهـ ستـارـ كـثـيفـ فـمـاـ يـعـرـفـهـ إـلـاـ

رـبـهـ.

وـمـنـ يـدـرـيـ؟ـ لـعـلـ ذـكـرـ تـكـرـيمـ وـتـبـيـتـ لـلـذـينـ يـعـمـلـونـ حـتـىـ الـمـمـاتـ بـعـيـدـاـ عـنـ الـأـضـوـاءـ،ـ إـنـهـ أـسـمـعـواـ مـنـ يـنـاجـونـ!ـ وـلـنـ يـضـيـعـ مـنـ

عـلـمـهـ مـثـقـالـ ذـرـةـ،ـ إـلـاـ جـهـلـ النـاسـ مـنـ هـمـ؟ـ

لـهـمـ أـسـوـةـ حـسـنـةـ فـيـمـ حـكـيـ الـقـرـآنـ أـبـاءـهـ وـتـرـكـ .ـ غـيـرـ نـسـيـانـ .ـ أـسـمـاءـهـ.

مـنـ هـؤـلـاءـ مـؤـمـنـ آـلـ فـرـعونـ،ـ الـذـيـ أـحـسـ نـيـةـ الـغـدـرـ بـمـوـسـيـ،ـ وـالـتـأـمـرـ عـلـىـ قـتـلـهـ،ـ فـاـصـطـنـعـ أـسـلـوبـ الـمـحـايـدـ فـيـ عـرـضـ نـصـهـ

وتفكيره قائلًا: ما خطورة أن يؤمن أحد بالله، أو يزعم أنه يحمل رسالة من لدنـه، إن كان كاذبًا فستفضله الأيام، ولن يضر إلا نفسه. وإن كان صادقًا فإن العداون عليه استهدف لعـاب الله الكبير، وليس من العـقل التعرض لـعـاب الله. واستتـلى يقول: قد نكون اليوم غالـبين، ولكنـنا بـشر لا نـفلـتـ من أصـابـعـ الـقدـرةـ العـلـيـاـ عـنـدـماـ تـقـبـضـ عـلـيـنـاـ فـلاـ يـنـبـغـيـ أـنـ نـجـورـ عـلـىـ عـبـادـ اللـهـ.

قال - تعالى - مخلداً دفاع هذه المحامي المؤمن: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَنْقَلَّوْنَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُونُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُونُ صَادِقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الذِّي يَعْدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر: 28-29].

وأحب أن أقف قليلاً عند رد فرعون، هل كان الرجل يعتقد فعلاً أنه راشد، أم أنه كان يحـادـ اللهـ وـرسـولـهـ وـهـوـ يـدرـيـ أنهـ مـبـطـلـ عـنـدـ؟

الـوـاقـعـ أـنـ كـثـيرـاـ مـنـ الضـالـلـينـ يـمـضـونـ فـيـ طـرـيقـ الـغـواـيةـ وـهـمـ يـسـتـهـسـنـونـهاـ وـيـسـتـرـيـحـونـ إـلـيـهاـ وـيـعـتـقـدـونـ أـنـ لـهـمـ وجـهـةـ نـظـرـ جـديـرـ بـالـتـسـلـيمـ.

وفي هؤلاء يقول الله - تعالى - : {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَ لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَلُونَ} [النـملـ: 4]. ويـقولـ: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيْنَ لَهُ سُوْءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} [محمد: 14].

ويـقولـ المـفـسـرـونـ فـيـ قـوـلـهـ -ـ تـعـالـيـ -ـ :ـ {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ} [الأنـفالـ: 19].

نزلـتـ الآـيـةـ فـيـ أـبـيـ جـهـلـ عـنـدـمـاـ قـادـ الـمـشـرـكـيـنـ فـيـ مـعرـكـةـ بـدرـ،ـ فـقـدـ قـالـ لـمـاـ التـقـيـ الـجـمـعـانـ:ـ "الـلـهـ أـيـناـ كـانـ أـفـجـرـ قـاطـعاـ لـلـرـحـمـ -ـ يـعـنيـ نـفـسـهـ وـمـحـمـداـ -ـ فـأـحـنـهـ الـيـوـمـ -ـ أـيـ أـهـلـكـهـ".ـ

فـكـانـ هـذـاـ الـكـفـورـ الـكـنـودـ كـانـ إـلـىـ الرـمـقـ الـأـخـيـرـ يـعـتـقـدـ أـنـ مـحـقـ فـيـماـ اـرـتكـبـ !!

إـنـ الـحـجـابـ الـمـسـدـلـ عـلـىـ بـصـيرـتـهـ لـمـ يـسـمـحـ لـشـاعـعـ مـنـ الـخـيـرـ أـنـ يـتـسـلـلـ إـلـىـ نـفـسـهـ وـهـوـ الـمـسـؤـولـ عـنـ ذـلـكـ الـطـمـسـ،ـ فـلـوـلـ إـدـمـانـ الـعـصـيـانـ،ـ وـتـعـودـ الـجـريـمةـ مـاـ أـصـابـهـ هـذـاـ الـعـمـىـ !!

وقد يكون كلا الرجلين فرعون وأبو جهل كاذبـاـ في حـديـثـهـ عـنـ نـفـسـهـ،ـ وـحـوارـهـ مـعـ قـومـهـ،ـ فـمـثـلـهـمـ مـنـ الـدـهـاءـ وـالـقـدـرـةـ بـحـيثـ يـدـريـ أـنـهـ مـسـتـرـسـلـ مـعـ هـوـاهـ،ـ وـأـنـهـ يـكـابـرـ الـحـقـائـقـ،ـ وـيـشـاقـ اللـهـ وـرـسـلـهـ.

وقد كشف القرآن الكريم في موضع آخر أنَّ فرعون وقومه لما جاءتهم آيات الله الـبـاهـرـةـ،ـ {وَجَحَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقَنْتُهُمْ أَنْفُسُهُمْ طُلْمًا وَعُلُوًّا} [الـنـمـلـ: 14]. كما قال لـرسـولـهـ مـحـمـدـ -ـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ -ـ شـارـحاـ مـوقـفـ أـبـيـ جـهـلـ وـأـشـبـاهـهـ:ـ {فَإِنَّهُمْ لـا يُكـذـبـونـكـ وـلـكـ الـظـالـمـينـ بـآيـاتـ اللـهـ يـجـحـدـونـ} [الـأـنـعـامـ: 33].

وقد كان مؤمن آل فرعون يـحـسـ أـنـهـ أـمـامـ جـمـاعـةـ مـنـ الـأـفـاكـيـنـ الـمـغـرـرـيـنـ،ـ فـأـخـذـ روـيدـاـ رـوـيدـاـ يـتـخـلـىـ عـنـ مـوـقـفـ الـحـيـادـ الـذـيـ بدـأـ بـهـ نـصـائـهـ،ـ وـارـتـفـعـتـ درـجـةـ الـحـمـاسـةـ فـيـ خـطاـبـهـ لـفـرـعـونـ وـمـنـ مـعـهـ،ـ خـصـوصـاـ عـنـدـمـاـ قـالـ فـرـعـونـ سـاخـرـاـ لـوزـيرـهـ هـامـانـ:ـ {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لـي صـرـحـاـ لـعـلـيـ أـبـلـغـ الـأـسـبـابـ أـسـبـابـ السـمـاـوـاتـ فـأـطـلـعـ إـلـىـ إـلـهـ مـوـسـىـ وـإـنـي لـأـظـنـهـ كـاذـبـاـ} [غافـرـ: 37].

عندـئـذـ اـحـتـدـتـ لـهـجـةـ الرـجـلـ الـمـؤـمـنـ،ـ وـاضـطـرـمـ الـإـلـحـاـنـ فـيـ قـلـبـهـ وـلـسـانـهـ فـصـاحـ:ـ {وـيـاـ قـوـمـ مـاـ لـيـ أـدـعـوكـمـ إـلـىـ النـجـاـةـ وـتـدـعـونـنـيـ إـلـىـ النـارـ} [غافـرـ: 41]. وـقـالـ:ـ {لـاـ جـرـمـ أـنـمـاـ تـدـعـونـنـيـ إـلـيـهـ لـيـسـ لـهـ دـعـوـةـ فـيـ الدـنـيـاـ وـلـاـ فـيـ الـآخـرـةـ وـلـاـ مـرـدـنـاـ إـلـىـ اللـهـ وـلـاـ الـمـسـرـفـيـنـ هـمـ أـصـحـابـ النـارـ *ـ فـسـتـذـكـرـونـ مـاـ أـقـولـ لـكـمـ وـأـقـوـضـ أـمـرـيـ إـلـىـ اللـهـ إـنـ اللـهـ يـصـبـرـ بـالـعـبـادـ} [غافـرـ: 44].

ولـكـ هـذـهـ الـمـنـاـشـدـةـ الـخـالـصـةـ الـحـادـيـةـ لـمـ تـلـقـ آذـانـاـ وـاعـيـةـ فـمـضـيـ فـرـعـونـ إـلـىـ مـصـرـعـهـ،ـ وـأـورـدـ قـوـمـهـ الـحـتـوفـ،ـ وـبـقـيـ النـصـحـ الـجـمـيلـ الصـادـقـ الـذـيـ يـذـلـهـ الرـجـلـ الـمـؤـمـنـ خـالـدـاـ عـلـىـ الدـهـرـ يـكـشـفـ عـنـ أـسـرـارـ الـقـدـرـةـ الـعـلـيـاـ فـيـماـ أـنـزـلـتـ بـالـظـالـمـينـ.

من هذا الرجل الذي يردد كلام الأنبياء وليس منهم؟ لا نعرفه، ولا نعرف عن مولده ولا مماته شيئاً... !!
ليكن رمزاً للعمل بعيداً عن الأضواء، واستعلاءً على الشهرة في الأرض، وإيثاراً للعقبى في السماء!!
وهذا رجل آخر من الطراز عينه، رجل وجد العراك محتمداً بين رسول الله وحمة الانحراف، هؤلاء يريدون أن يبلغوا عن الله
ويغيروا الشر السائد، وأولئك يريدون تكميم أفواههم وإخراج ألسنتهم...
ونما الخصام بين الفريقين وبلغ الأمر بأعداء الوحي أن تشاءموا من وجود المرسلين بينهم، ومن دعوتهم فيهم، فتهددهم
بالعذاب الأليم... .

وجاء الرجل المؤمن من بعيد يهيب بقومه أن يعقلوا!! وقال: {يَا قَوْمٍ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهَتَّدُونَ} [يس: 21].

لقد أمن قومه على أموالهم فلن يرثهم أحد فيها، وهذه الدنيا التي يحرصون عليها ستبقى لهم مزданة بالإيمان الحق، فما
أجمل هذا!

ثم تسأله: ما يمنعنا من الإيمان؟ وما يغرينا بالشرك؟: {وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَتَتَّخُذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً إِنْ
يُرِدُنَ الرَّحْمَنُ بِضُرِّ لَا تُغْنِ عَنِ شَفَاعَتِهِمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقَذُونَ إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٌ}[يس: 41-24].
إنه يريد أسماعهم ليروعوا، ويقتدوا، ولا يستوحشوا من الطريق الذي يدعوه إلهي، وبقي الرجل إلى آخر رقم ينصح أهل
بلده ليرشدوا، بيد أنه مات تاركاً إياهم على غوايتم.

فلما وجد طيب عيشه عند ربه، وثمرة إيمانه، تحف به، وتقر عينه، تذكر الرجل المخلص قومه، فتمنى لهم الهدى: {قَبْلَ أَدْخُلِ
الجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَرَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكَرَّمِينَ}[يس: 27].
ولكن قومه أصرروا على العمى، فمستهم نفحة من عذاب الله أخمدت أنفسهم وجعلتهم أثراً بعد عين.
من هذا الرجل الطيب القلب السمح النفس؟ لا نعرفه، حسبه أن ربه يعرفه. إذ لم ي عمل إلا له - سبحانه - !!

والفتية أهل الكهف الذين أحبوا ربهم حباً جماً، وغالوا بتوحيده مغالاة ظاهرة من هم؟ لا ندري، لقد رفض القرآن أن يجلو
النفاق عن أشخاصهم وعددهم: {رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ}[الكهف: 21]. {فُلِّ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ}[الكهف: 22].

لكنه كشف عن جلال يقينهم، وسمو معرفتهم لله، وإن جماعهم على إفراده بالعبادة، وزاردائهم لكل انحراف إلى الشرك، {رَبُّنَا
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطْنَا}[الكهف: 14].

كما كشف عن تبرهم الشديد بالمجتمع الوثني، وعزوفهم عن البقاء فيه، وخشيتهم من العودة إليه - إذا ضبطوا متلبسين
بإيمان!! - وانظر مدى كراهيتهم للكفر، والواقع تحت سطوة أهله، وقول بعضهم لبعض: {إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهِرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ
يُعِيدُوكُمْ فِي مَلَئِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْدَأُ}[الكهف: 20].

إن العيش بمبدأ كريم ولمبدأ كريم شيء عظيم حقاً.

وانما يتفجر الفداء والإخلاص من عمق هذه الحياة الرفيعة.

والأمة العربية فتك بها أمراض الرياء، وعلل التعاظم الأجوف، والرغبة في الظهور بالحق أو بالزور، ولا يمكن أن تنقض
أمة مع هذه الأدواء الخسيسة!!!

إننا بحاجة إلى أعداد كبيرة من الجنود المجهولين، يعملون في ألف ميدان ويسدون ألف ألف ثغرة.
فهل يوجد من يكتفون بنظر الله إليهم، ويستغفرون عن أنظار الناس.
وصلى الله على سيدنا محمد وآلـه وصحبه وسلم.

المصادر: